حول «حماية الأديب»

الحرية في خدمة القومية العربية

بقلم
الدكتور جودة الركابي

منذ ان غنى الانسان لحن ذاته ، وتحدث عن حبه وآلامه وذكرياته، شعر برابطة قوية تنبعث من اعماق نفسه لتربطه بالنفوس التي سبقته وبالنفوس الاخرى المحيطة به . هذا الشعور الذاتي يضم اعمق معاني الوحدة الاخوية . انه يتصل بالنفوس القريبة ، النفوس التي عاشت على نفس الارض وشربت نفس الماء واستنشقت نفس الهواء ثم لوحتها الشمس بنفس السمرة . ثم اذا هي تناجي بنفس اللغة وتردد نفس الذكريات وتجد ملامحها في كل وجه وتسمع صدى حزنها وفرحها في خفقات كل قلب يعيش الى القرب منها ... هذا هو الشعور القومي القديم الذي وجدت فيه كل امة شخصيتها والذي يجد ذاته الانسانية عندما يبتعد عن العصبية .

وكذلك قوميتنا العربية ولدت معنا ، وكانت روحا مبثوثة في تاريخنا وأدبنا وتراثنا الفكري والنضالي . وهي منا كالحياة ، نستيقظ باستيقاظها ونخبو بخبوها . وقد دل واقعنا المترامي في الماضي والحاضر على خلودها فينا ، وعلى أنها سبب بقائنا . ولم تكن في يوم من الايام سببا من اسباب تعصبنا الضيق ، بل انها فتحت فينا آفاق التطلع والبعث والحرية ، وعملت على اتمام شخصيتنا لتتضح فيها معاني الانسانية الكاملة التي ترى من خلال ذاتها مثل الحق والخير والجمال .

نعلم ان هذه القومية كان لها ان تعتز بالعربي لانه كل ذخرها ، فهي من صميم ذاته تنبع ،من هذه الاصول الفنية التي تدفقت لغة كريمة ،ومزايا مجيدة ، وفكرا منيرا ، ونفسا سمحة في انسانيتها المبدعة .

وقد اوحت هذه القومية منذ القديم باجمل النغمات العربية الصافية فرأينا البحتري يصرخ مزهوا مفتخرا بعروبته فيقول :

نحن ابناء يعرب اعرب النا ... س لسانا وانضر الناس عودا
وكان الاله قال لنا في الحر ... ب كونوا حجارة او حديدا

واذا كانت هذه القومية قد اعترفت بفضلها وزهت بمكارمها ما شاء لها الزهو ، كان من الطبيعي الا تخضع لغيرها من الحاكمين والا ترضخ للظالمين . وكان عليها ان تتمرد في وجه كل غاصب وان تقف ساخطة امام كل معتد ، الا ترضى بحكم ابنائها مرددة على مسامعهم بلسان متنبيها « وما تفلح عرب ملوكها عجم » .

لقد كانت القومية العربية في فجر التاريخ العربي ساطعة اصيلة ،وجاء الاسلام دعما لها وقوة ، واستطاعت بتكاملها وقوتها ان تسهم في بناء الحضارة الانسانية ، وبقيت فترة طويلة من الزمن تمرح في مجد الفكر وعز الفتح وراحة المحبة .

ولكن العرب غفلوا عن رسالة قوميتهم في فترة لهوهم وتخاذلهم وتطاحنهم فكان ان تقطعت اوصالهم ، ونزلت بهم المحن والكوارث ، فاجتاحهم الغاصبون واستسلموا الى غفوة طويلة ثقيلة كالرصاص :

وخبت نارهم وصب عليهم ... عاصفات التعذيب والتنكيد
والتفتنا فلم نجد غير ملك ... مزقته أصابع التبديد (1)

ومع أن ما نزل بالعرب كان يكفي ليبيد امة ، الا انهم استطاعوا ان يصمدوا لعوادي الزمن بفضل قوميتهم التي بقيت خالدة كالجوهر،تومض بين الحين والحين في ثنايا نفوسهم وهي تنتظر من يقدح زنادها .

وقام رجال الفكر والادب والنضال بهذه المهمة ، مهمة قدح الزناد، وايقاظ الوعي القومي في النفوس ، ورد القوم الى امجادهم ، واطلاعهم على مخازي واقعهم الغارق في مستنقع الجهل والفقر والظلم والاستعمار .

وعادت القومية العربية تصبح حقيقة تدفع العرب من جديد نحو الحياة.

ولقد كانت هذه الدعوة الى القومية العربية تبغي هدفين متكاملين :اولا الحرية ، وثانيا :التضامن العربي .

اما الحرية فقد كان يرى فيها الادباء اساس الاستقلال الوطني والتقدم الفكري ، لذلك اخذوا ينزلون غضبهم بالمستعمرين والطغاة المستبدين، ويندون بالاضطهاد الاجتماعي والفكري . وكانوا في صيحاتهم هذه يهيئون للكفاح الوطني ويؤججون نيرانه .

لنسمع خليل مطران كيف كان يصور هذه الحرية التي كان يتوق اليها مع ابناء جلدته ، لنسمعه كيف كان ينشدها في كثير من العناد والاخلاص ، ثائرا على الاضطهاد الذي سلط على اقلام المفكرين العرب يوم كان الاتراك ينشرون طغيانهم ويكمون الافواه ، فيقول :

كسروا الاقلام هل تكسيرها ... يمنع الايدي ان تنقش صخرا
قطعوا الايدي هل تقطيعها ... يمنع الاعين ان تنظر شزرا
أطفئوا الاعين هل اطفاؤها ... يمنع الانفاس ان تصعد زفرا
أخمدوا الانفاس هذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم فشكرا

اما الدعوة الى التضامن العربي فقد اخذت تتوضح على لسان الشعراء والادباء ورأيناهم في كل قطر عربي يفجرون في لهفتهم الى الوحدة ينابيع القوة العربية الكامنة في قوميتهم . وانها لصرخة مدوية تلك الصيحة

(1) من قصيدة لعمر ابي ريشة مطلعها :

أوقفي الركب يا رمال البيد ... انه تاه في مداك البعيد

العربية التي صاحها حافظ ابراهيم منذ خمسين سنة وقد استبق بها الزمن ليقول الى مكرميه من اهل الشام المقيمين في مصر :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

اجل لقد ازدادت هذه الدعوة قوة وازدادت نارها ضراما كلما امعن المستعمرون في تمزيق وحدة العرب ، فقام الشعراء يصلونها نارا حامية في وجوههم تسبق نار الثورات المتتالية التي اخذت تغشى دنيانا العربية . وتردد الشعر القومي يغذي الوجدان العربي بمثل هذه النبرات القومية التي كان يطلقها امتال حافظ وشوقي والزهاوي والرصافي ومطران والبزم وجبري وبشاره الخوري وغيرهم من شعراء النهضة العربية وادبائها .

هذه النبرات كانت تتغلغل في النفوس ، وكيف لا تتغلغل وهي تحمل الى القلوب عبير المجد وتفتح العيون على اضواء المستقبل ؟ فلنسمع من الشاعر محمد الشريقي ، شاعر الثورة السورية ، هذا اللحن ، انه من هذه النبرات التي تحمل اجمل معاني الوحدة العربية ،يقول :

يا سحابا يزجى الينا ركاما فترى الودق فائضا من خلاله

أين تغدو ؟ اشاطىء البحر ترجو ؟ أم بواديه ؟ ام رؤوس جباله ؟

اإلى مصر أم الى الشام تصبو والشقيقان واحد في وصاله

وطن العرب خافه كل عات أغرق الفانحين بحر وصاله

كفلته الصحراء شرقا وغربا حتى فت الاعداء في اوصاله

وهكذا لم يعد الادب يتلهى بالالفاظ والاشكال ، ولم يعد يلهي الناس بعبث لا هدف له ، بل اصبح يعمل في سبيل غاية ، اصبح ينبض بأنبل الافكار ، ويغذي ثورات الامة العربية التائقة الى الحياة الحرة ، حياة لا تعرف القيد والذل ، ولا تعرف الهوان والجور ، بل تبغي الكرامة والعزة والعدالة والسلام .

وما دام اثر الادباء في بعث وعينا القومي هو الذي ذكرت أفلا تجب علينا حمايتهم ، بل الا تجب هذه الحماية لمجرد كونهم ادباء ، اي انهم اصحاب رسالة .

فالاديب لم يعد غير مسؤول ، بل هو مرشد وموجه،ومن الواجب علينا ان نهيء له السبيل الذي يفسح له تأدية رسالته .

وأول هذه السبل لحماية الاديب هي : الحرية .الحرية التي تنبع من ذاته وتغذي ابداعه الذي يتجاوب مع قومه .

ان هذه الحرية يجب ان نوفر له اسبابها . فليس من العدل ان نسلبه ما سعى من اجله . ليس من العدل ولا من الاخلاص للادب ان نحد من حرية الاديب المبدعة في الوقت الذي طلبها لنا كاملة واسعة ، خالصة من كل شائبة .

لقد ثار في الماضي على الاستعباد ليهب شعبه الحرية ، فليهيء له هذا الشعب الحرية التي ارادها له ما دام امينا على رغبات شعبه ، حاملا رسالته ، معبرا عن آماله ورغائبه .

نعم ان الادب تأكيد دائم للحرية الانسانية ، لانه في بحثه عن الحق والخير والجمال انما يبحث في كل لحظة عن الحرية . واذا كتب الاديب فهو انما يقوم بهذه المهمة لانه يتحمل دوام الحرية والدعوة اليها .

وما دام الاديب قد وجد في الاصل ليعبر عن ذاته التي هي صورة عن ذات شعبه ، كان عليه ان يبقى مخلصا لهذه الذات ، اي كان عليه ان يبقى مخلصا لهذا الشعب . وعلينا ما دام يتصف بهذه الصفات التي فرضتها عليه ذاته الادبية ان نترك له الحرية لانه لا يستطيع بدونها ان يبدع ويخدم رسالة قومه . ولكن اذا حدث ان تخلى الاديب عن آمال قومه او انحرف ، يكون عندئذ قد تخلى عن حريته لانه تخلى عن ذاته ، وتقضي علينا حينئذ المصلحة القومية التي لا نفرق بينها وبين الذات الانسانية ان نراقب من لا يزالون يلقبون انفسهم بالادباء ، والكتاب والشعراء لانهم اصبحوا لا يستجيبون لذواتهم بل يعملون في سبيل رغبة خارجة عنهم .

ان الرغبة يجب ان تنبعث من الاديب ذاته ، وان رغبة الاديب الذي يستحق هذا اللقب هي رغبة سامية تستحق كل حرية . اما اذا اتصفت هذه الرغبة بما لا ترضاه الذات الانسانية السليمة ، المحبة للحق والخير والجمال فعلينا عندئذ ان نكون رقباء ، وهذه الرقابة انما تفرضها القومية التي اتحدت مع ذات الاديب . وقد تصل بنا الرقابة عند بعض من كنا نسميهم بأدباء الى ان نقول لهم: اسكتوا ، إنكم مخربون ، لقد خسرتم معاني رسالتكم السامية، انكم لم تعودوا ادباء لانكم تخليتم بانحرافكم عن حريتكم الشخصية .

فالقومية العربية لا تخلق الا الاديب الحر المستحق للحرية ، لان القومية والذات شيء واحد ، فالابداع الفني يتولد في النفس نتيجة لعوامل خفية لاشعورية عميقة. وهذه العوامل انما هي جذور تربط الاديب بجذور الضمير العربي.

فالقومية العربية اذن هي وعي بالضمير العربي وبشخصية الامة العربية ، لذلك عندما يعرب الاديب او الفنان بأدبه او فنه عما يجيش في نفسه يكون بذلك قد عبر عن ارادة قومه في تلك اللحظة من تاريخ الامة . ومن هنا كان التعبير مبدعا خلاقا متجددا بتجدد ارادة الامة وتطورها طوال مراحل تاريخها . لذلك عندما يبدع الاديب فهو يبدع ما يجيش في صدره من عواطف تربطه بالضمير العربي . فاذا خرج الاديب وشذ وانحرف كان معنى ذلك انه لم يكن حرا بل تنازل عن حريته الشخصية وتنازل عن الصفة التي تربطه بقومه وعندئذ لا يصبح اديبا بل يمكننا ان نعتبره مؤلفا او مأجورا ، فاذا كان الاديب شاعرا خسر صفة الشاعرية المبدعة الخلاقة وأصبح ناظما ، واذا كان ناقدا خسر صفة النقد وأصبح داعية .

فحرية الاديب اذن اما ان تكون او لا تكون . وفي حالة تنازله عنها تجب مراقبته . ومراقبتنا له لا تعني في الواقع اننا نراقب ابداعه الحر كأديب لانه لم يعد اديبا وانما نراقب سلوكه المفتعل الذي يجعله مؤلفا او ناظما او داعية بدل ان يكون مبدعا خلاقا ، كاتبا او شاعرا او ناقدا صادقا .

وحماية الاديب تقضي علينا بأن نؤمن له عيشا كريما يتناسب مع صفة القيادة التي له ، ويتناسب مع احساسه وذوقه المرهف . لا يكفي فقط ان نكفيه غائلة الجوع والعوز، على الرغم من ان كثيرا من الادباء ـ ويا للاسف ـ يجوعون، بل يجب علينا ويجب على الدولة التي تعبر عن ارادة الشعب ان تهيء له العيش الذي يتفق مع انسان العصر، وتؤمن له المستوى الاجتماعي اللائق باحساسه ، وتؤمن له الفراغ اللازم لانتاجه وتدرأ عنه متاعب الحياة المادية .

فمن هو اجدر من الاديب بالنعيم وهو الانسان المرهف الذي يعرف قيمة الكفاءة ويعرف ما يميزها عن لعب الصدف وعن مكر الماكرين ووجاهة المحتكرين ؟ ان من العار ان نرضى له باليسير . انه يمثل تطلع الامة فلنهيء له الدفء ولنهيء له ما يحتاج كانسان كريم يعيش في القرن العشرين .

ان العبقريات المحرومة الساخطة تستطيع ايضا ان تعزف الانشودة الخالدة في قصر منيف اذا كان بين جوانحها نفس مخلصة . والاديب الحق هو من يضم هذه النفس المخلصة فلا تخشوا رغد النعيم تغدقونه على الادباء المحرومين !

ويجب علينا ان نحمي الاديب من قوى الشر والفساد ومن اضطهاد المجتمع الفاسد المتخلف كي يستطيع ان يؤدي رسالته في تصوير هذه القوى التي تعمل في نخر جسم الامة والحؤول دون تقدمها . اذ نخشى اذا لم نهيء له اسباب الحماية ان يخضع لافساد مفسد اومغريات مضرة فتضعف نفسه امام لهب الشر وبريق الاغراء ويتحول عن رسالته الفاضلة .

نعم قد يقول قائل ان اديبا لا يجد في ذاته المناعة الكافية لمعالجة هذه القوى الشريرة لا فائدة من حمايته . ولكن أليس مما ينعش نفس الاديب الفاضل ويشحذها ان ترتفع الى جانب صوته اصوات اخرى آمنت بالخير ولديها من القوة والسلطة ما تستطيع ان تدرأ به عاديات المفسدين ؟ كم يثلج نفس الاديب ونفس كل ملهم بل نفس كل انسان ان تمتد اليه يد سليمة تملك السلطة والقوة لتدفع عنه سكينة مسمومة تمتد اليه في الظلام ! اننا نبارك هذه الايدي النقية التي تحميه ، انها ولا شك من صنعه ، ومن نفثات قلمه .

نعم ان على الاديب العربي ان يصنع هذه الايدي السليمة، وعليه ان يصنع الحكومات التي تعرف كيف تدرأ عنه الفساد الروحي والفكري . ولعل اخطر فساد يلاقيه هو ما يبثه الاستعمار في وقتنا الحاضر من ثقافة مسمومة تهدف الى بلبلة افكاره ، وزعزعة ثقته ، واضاعة معالم ثقافته الوطنية الصحيحة . وعلى الحكومات ان تقف في وجه هذه الثقافة المسمومة التي ليس فيها من العربية الا اللفظ والتي تصنعها المصانع الاستعمارية والاقلام المأجورة وتهدف فيما تهدف الى اضعاف روحه ، وتبديد آماله ، وغمره في قلق الشك ، وميوعة الانحلال .

* * *

وحماية الاديب يجب ان تأتيه على انها عون ومساعدة، وتشجيع واكرام ، وتقدير وتفتيح آفاق ، لا على انها الزام واكراه .

فعلى الاديب ان توجه اليه الحماية ليخدم لا ليشعر بالتبعية ، ويجب الا تأتيه الحماية عن طريق مباشر فالطريق المباشر يؤذيه لانه يحمله على ان يشعر بالارتباط ، فيجب ان نبعد عنه هذا الشعور ونحترم كرامته واحساسه وقيمته الانسانية الحرة .

وأرى ان افضل حماية توجه للاديب هي في ان نسهل له سبل الانتاج عن طريق طبع آثاره ودراستها ونشرها وايجاد دور النشر الشريفة وارصاد الجوائز القومية تقديرا لانتاجه الرفيع .

ان الاديب الذي يبعث الروح في الامة ليقودها الى معارج القيم الانسانية الخالدة ، يجب ألا يشعر في تحقيق اهدافه بوطأة الحماية او بشعور الوظيفة . فابداعه وخدمته للاهداف القومية ليس وظيفة وانما هو رسالة . ولذا كان عليه ان يشعر بان الحماية ليست خارجا عن ذاته وانما هي من صميم ذاته .

وهذه الحماية يصل اليها الاديب في المجتمع المتطور المثالي الذي يعمل من اجله ، وفي قوميته التي انجبته وبقيت تحرسه وتحرس قيمه الخالدة التي بثها في مجتمعه المثالي .

من اجل هذا يحق للاديب العربي اليوم الا يطلب الحماية الا من قوميته العربية ففي هذه القومية التي تعمل لبناء الوطن العربي الحر الكبير ، الذي لا يجد فيه الاستعمار ولا الاستغلال سبيلا ، في هذه القومية العربية تكمن اكبر حماية للاديب بل اكبر حماية لكل مواطن عربي ينشد الحياة الحرة والمستقبل العادل الكريم .

فليكن اديبنا العربي اذن كما كان دائما في خدمة هذه القومية لانها الطريق الى العزة العربية المنشودة . ولنحي باكبار واجلال عملاق هذه القومية العربية وقادح زنادها ومضرم نارها الرئيس جمال عبد الناصر الذي بعث في كل نفس عربية هزة المجد وعزة النصر وفتح من جديد امام هذه الامة العربية باب الخلود .

جودة الركابي